# الأمير علي بن عبد القادر الجزائري ودوره السياسي في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى

الأستاذ سهيل زرقين الخالدي

أستاذ باحث- سوريا

تمهيد:

يعتبر هذا البحث قراءة في كتاب / تاريخ حياة طيب الذكر، الأمير علي بن الأمير عبد القادر، ملك الإقطاع المغربية وسلطان الأرياض الجزائرية، الذي كتبه مجموعة من الكتاب في دمشق بإشراف محمد سعيد الجزائري ابن الأمير علي بن عبد القادر وطبع في مطبعة الترقي 1918 بدمشق ويتكون من 176 صفحة من القطع الصغير وقد عثرت عليه في مكتبة الظاهرية وقمت بتصويره وخوفا عليه من الضياع سمحت للباحث الجزائري الدكتور مصطفى نويصر بتصوير نسخة منه حتى تكون في الجزائر نسخة من هذا الكتاب ،و هو نفس ما فعلته من قبل مع كتاب تاريخ الزواوة الذي قمت بتسليم نسخة مصورة منه لمؤسس المدرسة التاريخية الوطنية الجزائرية الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، وجاءت هذه القراءة في الكتاب نتيجة تتبع لملاحظاتي وملاحظات المرحومة

والدتي على الكتاب لحظة العثور عليه مع أقوال كبار الجالية الجزائرية وبعض كبار العائلات الدمشقية والفلسطينية ذات العلاقة ثم مقارنة ذلك مع المراجع المكتوبة والتي أشرت إلى بعضها في هوامش هذا البحث الذي مازال بالنسبة لي مفتوحا حيث أنه يشكل جزءا من دراسة أوسع عن دور الجزائريين في حركة التحرر القومي العربي من الفترة 1847- 1947 أرجو أن أوفق في إنجازه خدمة للجزائر التي طالما شردتني إدارتها الفرانكفونية.

**بطاقه شخصية:** علي بن عبد القادر بن محي الدين بن المصطفى وصولاً إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب)[1] (تحفة الزائر، ص. 923).

ولد في دمشق عام 1276هـ، بمنزل الأمير في حي العمارة الذي مازال قائماً حتى الآن، وإن شغلت بعضه جمعية خيرية وبعضه صار ملكاً لعائلة الكتاني ذات الأصل المغربي، وبعضه الثالث ملكاً لعائلات دمشقية أخرى، وهو المنزل الذي سعيت منذ عام 1988 لدى السفراء الجزائريين في دمشق بدءاً من عبد القادر حجار وعبد الله ركيبي وغيرهما لتتملكه الحكومة الجزائرية مع بيته أو قصره الآخر في دمر وتحولها إلى مؤسسات ثقافية جزائرية.. لكنهما لم ينجحا في ذلك، ومطلوب منهما اليوم كشف الملابسات التي حالت دون استملاك هذه البيوت الجزائرية التي شهدت أحداثاً كبيرة في تاريخ المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول

من القرن العشرين، وليس فقط مولد عدد من أولاد الأمير عبد القادر الذين أسهموا في تاريخ المنطقة، وقد أنجب ألأمير عبد القادر ست بنات وعشرة ذكور من زوجاته الأربع.

**تعليمه:**

حسب كتاب تاريخ الطيب الذكر فإن علي بن عبد القادر تعلم على يد والده أولاً ثم أخذ العلوم الدينية على الشيخ أحمد الحلواني والفقه المالكي على محمد بن عبد الله الخالدي، واللغة العربية على الشيخ محمد الطنطاوي، والحديث على الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ سليم سمارة، وتعلم اللغة التركية على كل من سليم الترك ووصفي أفندي.

**موقفه من الجزائر:** ما يميز موقف الأمير علي بن عبد القادر السياسي هو موقفه الساعي بشده لاستقلال الجزائر عن فرنسا، وقد قاده هذا الموقف الأساسي في حياته إلى مواقف فرعية فقام نوع من التلابسات بين هذه المواقف، وفيها، مما أدى إلى أن تقوم فرنسا وغيرها من دول الحلفاء، والدولة العثمانية نفسها إلى طمس تاريخه. فقد أسس الأمير علي في دمشق جمعيتين تعملان لاستقلال الجزائر. أو قل هي جمعية واحدة على مرحلتين كان اسمها في المرحلة الأولى: جمعية مهاجري شمال إفريقيا وأخذت في المرحلة الثانية اسم جمعية مجاهدي شمال إفريقيا. وقد ترأس ابنه هذه الجمعيات اعتبارا من عام 1915م. وتبدأ المرحلة الأولى بعام 1911 وقد أصدرت هذه الجمعية

جريدة أسبوعية باسم المهاجر عام 1912[2] وكان يرأس تحريرها التهامي شطه وفي تقديري أنه من الضروري جداً البحث عن هذه الجريدة، فقد اطلعت وصورت نسخة من أحد أعدادها.. ويظهر فيه مطالبة الجمعية باستقلال الجزائر ويظهر اهتمامها بالقنصل الألماني في دمشق الذي يعبر عن تأييد دولته ألمانيا لاستقلال الجزائر عن فرنسا.. واهتمام جريدة المهاجر والجمعية التي تصدرها بألمانيا وقنصلها هو جزء من تحالف مؤسسها مع ألمانيا. ويبدو لي أن موقف الأمير علي من استقلال الجزائر ليس موقفاً إعلامياً أو منعزلاً، ذلك أنه خلال تواجده في ليبيا على رأس الحركة السنوسية ضد الغزو الليبي مبعوثاً من طرف الحكومة العثمانية أقام علاقة بين هذه الحركة والشعب الجزائري واستقبل المتطوعين الجزائريين للجهاد ضد إيطاليا كما يفهم من رسالته إلى عائلته في دمشق، والشيء نفسه مع الشعب التونسي، بل أنه زار تونس واستقبل فيها ابن أخيه الأمير خالد الهاشمي الذي كان كما هو معلوم يؤسس في تلك الحقبة للحركة الوطنية الجزائرية، وأكثر من ذلك فإنه زار بسرية تامة الجزائر نفسها كما ورد في كتاب تاريخ طيب الذكر، وهذا يذكر بحركتين لشخصيتين جزائريتين من المشرق العربي الشيخ طاهر الجزائري الذي زار عائلته في وغليس قرب بجاية قادماً سراً من تونس وقبله محي الدين شقيق علي الذي التحق سراً من تونس بثورة المقراني عام 1871[3] فهل كان الرجل يتحرك على ذات الخارطة وذات أسباب أخيه وابن أخيه؟ وهو استقلال الجزائر أو الحصول على

عرش في تلك الفترة كانت القوى الأوروبية تسعى لتكوين عروش تابعة لها على أراضي الرجل التركي المريض.

**موقفه من الدولة العثمانية:** فور وفاة الأمير عبد القادر بدمشق عام 1882 سعت الدولتان العثمانية والفرنسية لاستقطاب ولاء أولاده، وبذلت لهم من الأموال والمغريات الشيء الكثير واستطاعت الدولتان شق موقف عائلة الأمير مما أثر عليها في وقت لاحق فقد قبل بعض أولاد الأمير ومنهم الهاشمي الجنسية الفرنسية، وانتقل الهاشمي مع ولده خالد إلى الجزائر واستقر في بلدة بوسعادة في الصحراء الجزائرية. لكن الأولاد الأكثر أهمية من أولاد الأمير عبد القادر هم محي الدين بسبب دوره في ثورة المقراني, وعبد المالك بسبب دوره في ثورة المغرب، وولده علي بسبب دوره في مقاومة الغزو الأيطالي لليبيا ثم ولده محمد وهو الأكبر بسبب قربه من الخليفة العثماني كمرافق ومستشار له / ياور/ ولم تكن العثمانية حتى 1912 قد اعترفت علنا لفرنسا بالجزائر.. فأغدق الباب على أولاد الأمير الذين اختاروا العثمانية المال والمناصب والألقاب فمنح محمد رتبة فريق في الجيش العثماني ودرجة "ياور" أي المرافق المستشار للسلطان نفسه وأما علي فقد منحه لقب باشا وهو الوحيد من الجزائريين في المشرق العربي الذي حظي بهذا اللقب رسمياً، فحتى والده الأمير عبد القادر على أهميته لم ينل هذا اللقب رسميا.

كما فتح السلطان العثماني الباب واسعاً للأمير علي للعمل السياسي حين سمح له بالدخول إلى البرلمان العثماني الذي يسمى "مجلس

المبعوثان" ويكون أحد نائبي دمشق ثم اختاره ليكون نائباً لرئيس هذا المجلس.. أي أن علي بن عبد القادر أوشك أن يكون الشخصية الثالثة في دولة بني عثمان.

وفي أعقاب إعلان الدستور عام 1908 وفتح المجال لتشكيل الجمعيات والأحزاب السياسية شكل شقيقه محي الدين بن عبد القادر حزباً سياسياً باسم الإخاء العربي العثماني وكان أول حزب سياسي علني يحمل تسمية العربي.. وليس لدينا معلومات أكيدة بأن الأمير علي انضم إلى حزب أخيه.

**موقفه من الحركة القومية العربية:**

يبدو لي أن موقف علي بن عبد القادر من الحركة القومية العربية ثم تجلياتها في الجمعيات وثورة شريف مكة ضد العثمانية، هو موقف يكتنفه الغموض ولا زال بحاجة إلى الكثير من البحث.

1- لا تحدثنا المصادر عن علاقة واضحة بين الأمير علي والشخصيات السياسية والفكرية من رجال القومية العربية في دمشق وبيروت بما فيها الشخصيات الجزائرية سواء من أقاربه أنفسهم، بمن فيهم شقيقه الأمير عمر بن عبد القادر، والشيخ طاهر الجزائري، والأمير طاهر بن شقيق الأمير المسمى أحمد بن محي الدين..

2- لا تحدثنا المصادر عن علاقة له مع شريف مكة الحسين بن علي وولده فيصل، مع أن الشريف حسين جعل من مسوغات ثورته ضد تركيا اعتداء واليها في دمشق على قبر الأمير عبد القادر

3- ومع ذلك تحدثنا المصادر أن والي الشام أحمد جمال باشا المعروف في الأدبيات العربية بجمال السفاح قد اتهم الأمير علي وأولاده وعددا من أفراد العائلة الجزائرية بالضلوع في ثورة شريف مكة التي تعرف بالثورة العربية الكبرى وأعدم عمر بن عبد القادر ونفي الأمير علي ومعه ولده عبد القادر بن علي بن عبد القادر إلى الأناضول.

4- وإذا كان ضلوع الأمير علي مع الثورة العربية الكبرى، صحيحاً، كما قال جمال السفاح، فإن ذلك يقتضي تحسناً بعلاقة الأمير علي مع فرنسا.. وقد واتته فرصة كبيرة لذلك.. حيث أن فرنسا أيدت ثورة الحسين بن علي، بل أنها اعترفت ضمنياً بعروبة وإسلام الجزائر حين أرسلت إلى الحسين بن علي وفداً من المغرب العربي يرأسه الجزائري المدعو سي قدور بن غريطا يحمل رسالة من //جو إنكاره// رئيس جمهورية فرنسا ويورد أمين سعيد أسماء الوفد حيث يقول: لوهذه أسماء أعضاء الوفد: آغا شعراوي ومصطفى شرشالي عن الجزائر الشاذلي العقبي وٱلعربي بن الشيخ عن تونس وسي أحمد بن شكريج عن الغرب الأقصى. وعبده خان عن أفريقية الغربية، أما سكرتير الوفد فهو السيد علي ملك[4].

كما أننا نعرف أن عالماً مهماً من علماء الجزائر هو الطيب العقبي كان محرراً في جريدة القبلة التي أصدرها شريف مكة.. لكن المصادر لا تحدثنا عن أية علاقة شخصية أو خطية أو عبر أطراف ثالثة بين علي وفرنسا التي تؤيد الثورة التي يتهم بالضلوع فيها،

وبالتالي ألم يكن باستطاعة فرنسا توظيف علاقة علي بشريف مكة- إن كانت قائمة فعلا- لصالحها سواء في المشرق أو في الجزائر ... إن الأمر يحتاج إلى باحث جزائري يكشف عن علاقة الحركة الوطنية الجزائرية بثورة شريف مكة ..وهل كا، الأمير خالد يلعب دورا من خلال عائلته في المشرق؟

5- تحدثنا المصادر قفزا عنه عن دور لعبه - ولداه محمد سعيد وعبد القادر في هذه الثورة، وأن بريطانيا "لورنس" اتهمتهما بالعمالة إلى فرنسا[5].

هل كان موقف علي بن عبد القادر الغامض من الثورة العربية جزءاً من عملية توزع أدوار قامت بها العائلة الجزائرية حيث نراها قد توزعت على الخريطة السياسية المحلية والدولة آنذاك.. أم أنه غموض ناجم عن شكوك في سلطته العثمانية راود ته بعد موقفها من غزو إيطالية وليبيا وشكوك هذه السلطة فيه؟

تقول بعض المصادر الإعلامية إن الخليفة العثماني عين الأمير علي بن عبد القادر مندوبا عن دمشق باقتراح من الأمير شكيب أرسلان عام 1914 وهي رواية لا تستقيم لأن ذلك البرلمان الذي عرف باسم // المبعوثان// كان يضم مبعوثين اثنين من كل مدينة كبيرة في الدولة العثمانية، كان يقوم على الانتخاب نتيجة للإصلاحات الدستورية التي حدثت في تلك الدولة عام 1908، كما أن أدهم الجندي[6] يتهم ألأمير شكيب أرسلان بمعاداة عائلة ألأمير عبد القادر بل يتهمه بأنه هو الذي أرشد الجيش العثماني على بيوتهم لاعتقالهم وأنه هو الذي

قام بخدعة تسليم الأمير عمر شقيق علي إلى جمال باشا السفاح .. وهي تهمة خطيرة على هذا المستوى لم يقم ألأمير سعيد ابن علي بنفيها وبالتالي فإن المسالتين سواء مسألة اقتراح شكيب أرسلان بتمثيل علي أو بمعاداته للعائلة الجزائرية تحتاج إلى تدقيق.

ونحن ليس لدينا شك في أنه كان نائبا في ذلك البرلمان لأننا حصلنا على صورة بطاقة عضويته وهي المرفقة مع هذا البحث.

**موقفه من ألمانيا:** يتضح من كتاب تاريخ طيب الذكر أن الأمير علي بن الأمير عبد القادر كان حليفاً لألمانيا وإمبراطورها ويبدو أنه زارها خلال الحرب العالمية الأولى زيارة طويلة وواسعة حيث حظي باستقبالات كثيرة من طرف شخصياتها والتقى بالأسرى الجزائريين من الجيش الفرنسي.

ويبدو لي أن تحالف الأمير علي مع الألمان يتفق وفكره السياسي وعواطفه فألمانيا:

1- تؤيد استقلال الجزائر عن فرنسا، ليس لأنها لم تكن ذات أطماع استعمارية، بل بسبب هذه الأطماع عينها التي تقودها لمواقف مناوئة لغريمتها فرنسا، فعلي هنا كأنه كان يطبق مقولة عدو عدوي صديقي. خاصة إذا كانت لديه وعود بعرش الجزائر.

2- ألمانيا هي حليفة تركيا العثمانية ضد كل من بريطانيا وفرنسا وسائر الدول التي عرفت بدول الحلفاء.. وعلي كان موالياً للدولة العثمانية وخاصة رمزها السلطان أو الباب العالي.. تماما كوالده عبد القادر الذي كانت علاقته مع سلاطين بني عثمان أفضل من

علاقاته برؤساء حكوماتهم ، وبالتالي فعلي يحالف ألمانيا بصفته عثمانياً.

**موقفه من إيطاليا:** استناداً على تراث والده من الكفاح ضد فرنسا في الجزائر وعلى إخلاصه للدولة العثمانية تم تكليفه بالالتحاق بالحركة السنوسية التي تقود الكفاح ضد الغزو الإيطالي لليبيا، وقد أورد كتاب تاريخ حياته عدة رسائل وبرقيات من مسؤولين عثمانيين في هذا الصدد.

وقد وصل علي عبد القادر ليبيا بعد شهرين من رسو السفينة التي أقلته من بيروت إلى الإسكندرية حيث قطع تلك المفاذة الصحراوية على منطقة جغبوب حيث الزاوية السنوسية التي يعود أصل مؤسسها الأول على زاوية في مدينة مستغانم في الغرب الجزائري وقد اهتم مؤرخو الحركة الوطنية الليبية وكفاحها ضد الاحتلال الإيطالي بدور الأمير علي في هذه الحركة ويبدو لي أن على الباحثين في تاريخ حركة التحرر القومي العربي مشرقاً ومغرباً التوقف عن الأمير علي من إيطاليا وتعمق البحث فيه، حيث من الواضح أن الرجل فوجئ بالموقف الرخو للحكومة العثمانية من الغزو الإيطالي مما يذكره بموقفها الرخو من الغزو الفرنسي حيث لم يكن والده قد تلقى مساعدات جدية من هذه الحكومة مخالفة بذلك موقف السلطان.

وقد تجلت هذه الازدواجية العثمانية من قضايا الكفاح القومي العربي الإسلامي في ليبيا، حيث أن المصادر لا تحدثنا عن إمكانيات عسكرية أو بشرية أو مالية وضعتها الحكومة تحت

تصرف الأمير علي. أما الجيش العثماني فقد وضع تحت إمرة ضابط تركي والذي كان يساعده في أحد مؤسسي حركة القومية العربية وهو عزيز المصري.. وقد لاحظ عزيز المصري أن تعليمات وأوامر رئيسه التركي. لا تصب في مصلحة الكفاح ضد الغزو الإيطالي، فكان يخالفها وفي وقت لاحق ترك العثمانيون ليبيا وسلموها للطليان وعاد الأمير علي في الوقت الذي كان يرى أن البوارج البحرية الإيطالية تقصف بيروت لأنها تهزم في طرابلس الغرب.. ولم تمر سنوات قليلة إلا وتم إلقاء القبض على عزيز المصري وهو أهم ضابط عربي في الجيش العثماني وأوكلت مهمة محاكمته لذات قائده التركي في ليبيا لينتقم منه وبفعل الضغوط الشعبية العربية نجا عزيز من حبل المشنقة وأعيد إلى بلده مصر على أن يلزم الهدوء.

والسؤال هنا والذي لا نجد إجابة عليه في المصادر القليلة بين أيدينا، ما هي العلاقة بين عزيز المصري و سليم وعمر وغيرهما من الجزائريين في الجمعيات التي كانت تعمل لتحرر العرب؟

وفي اعتقادي أن الأمير علي علم بطريقة ما ربما عبر ألمانيا- عن معاهدة أوشي السرية بين إيطاليا والدولة العثمانية التي وقعت في 1912/10/18 في بلدة أوشي على بحيرة ليمان السويسرية بين روما واستانبول والتي بموجبها تتنازل استانبول لإيطاليا عن طرابلس الغرب وبني غازي بطريقة جد خبيثة حيث يصدر السلطان العثماني "فرماناً" يترك الخيار للأهالي بين الدولة العثمانية وإيطاليا، بحيث يظهروا وكأنهم استسلموا بآرائهم لإيطاليا[7].

ومن الملاحظ أيضاً أن تركيا العثمانية أقرت في اتفاقية سرية لها بنفس الفترة مع فرنسا بتبعية المغرب وتونس والجزائر لفرنسا[8].

وأنا أعتقد أن حكومة الطورانيين قد تخلصت تسليم ليبيا إلى إيطاليا من بقايا تبعياتها الأخلاقية تجاه المغرب العربي وكان مالي الشام أحمد جمال باشا السفاح الذي يدعي الولاء للسلطان العثماني يشغل في نفس الوقت وزيراً للحربية في حكومة الاتحاد والترقي الطورانية وأوكلت إليه مهمة محاربة الإنكليز والفرنسيين بل وطرد الإنجليز من مصر.. لكنه تحت الطاولة كان يجري محادثات مع الحلفاء أي الفرنسيين والإنجليز والروس، ليقوم بالانفصال عن سلطانه وتعيين نفسه ملكاً على الشام والعراق والجزيرة العربية واليمن وجنوب تركيا. وكان منافسه الحقيقي في هذه المنطقة هم رجال حركة القومية العربية ومنهم العائلة الجزائرية وقد حصل على أسماء هؤلاء الرجال من القنصلية الفرنسية بدمشق[9]، وقد تخلص منهم بالإعدام والنفي ومن الذين نفاهم الأمير علي الذي يكون في هذه الحالة قد فقد كل شيء فلا هو على وفاق مع العثمانيين سلطاناً وحكومة ولا هو بقي مع المقاومين في ليبيا والمغرب العربي، ولا هو على موقف واضح من حركة القوميين العرب الآخذة في النمو، وأعتقد أنه من الضروري للمؤرخ الجزائري والعربي عموماً الحفر في تاريخ الأمير علي بن عبد القادر، خاصة في الموضوع الليبي. فقد جرى في البرلمان التركي "مجلس المبعوثين"

مشادات ومعارك بالأيدي بين النواب العرب والأتراك وحكومة الاتحاد والترقي حيث اتهم النواب العرب الحكومة العثمانية أنها سحبت جيوشها من ليبيا ولم تساعد العرب هناك لتحاربهم في اليمن. يقول علي سلطان (العرب يثورون، أو يزيدون من ثورتهم السابقة ضد الاتحاديين، واتهموهم بالتهاون في الدفاع عن قطر عربي، وحمل شكري العسلي الاتحاديين مسؤولية التخلي عن طرابلس الغرب، وقال إن العرب هم الذين حاربوا، مع أن الحكومة عاملت الأهالي بشكل سيء، ولم تساعدهم في حربهم، وانتقد عقلية جمعية الاتحاد والترقي وعنصريتها)[10].

وكان الصراع بين النواب العرب والترك الطورانيين في البرلمان التركي في أوجه في تلك المرحلة وزادته المسألة الليبية تأججاً. (ووصل النزاع والشقاق بين العرب والترك إلى مجلس المبعوثين بين الطرفين واتهم حسين جاهد (تركي) النواب العرب بالتجسس وأنهم كانوا من عملاء وجواسيسي عبد الحميد) (1113)، ص. 123. فهل كان علي بن عبد القادر مع النواب العرب وبالتالي جاسوساً للسلطان عبد الحميد بنظر حزب الاتحاد والترقي الطوراني النزعة؟

**موقفه من القضية الفلسطينية:**

لم تكن قضية فلسطين والمطامع الصهيونية وتآمرات الدول الكبرى قد ظهرت للعيان في حياة الأمير علي فقد فضحت الثورة البلشفية وعد بلفور في أواخر عام 1917 أي وعلي في منفاه التركي وقبل وفاته في استانبول عام 1918 وهو نفس عام انتهاء الحرب العالمية

الأولى وبالتالي سقوط الدولة العثمانية فعلا غير أن التلابس مازال قائما ،حيث أن هناك شكوكا حول موقف ولده سعيد وحفيده عبد الرزاق وعدد من أفراد العائلة مثل محمد الباقر بأنهم كانوا يبيعون بعض أراضيهم في فلسطين وجنوب سورية للحركة الصهيونية ، بل ويحاولون أن يلعبوا دور السمسار بينها وبين بعض الفلاحين ويستعملون تأثيرهم على المهاجرين الجزائريين الذين كانوا يدينون لهم بالولاء منذ الأمير عبد القادر ، وتأتي هذه التلابسات من واقعة أن ولده ألأمير سعيد انتسب إلى الماسونية وصار رقما بارزا فيها خلال ثلاثينيات القرن العشرين وهو انتساب وثقه الباحثان سعيد الجزائري[11] وعمر حسين حماده (وذكره سليمان المدني 13) ويبدو أن هذا الانتساب كان على أرضية أن جده الأمير عبد القادر كان على علاقة بهذه الحركة كما يذكر ذلك جورجي زيدان ووثقه المؤرخ التونسي عبد المالك التميمي، وقد كانت الجمعية الماسونية في عهد الأمير عبد القادر غامضة ولا يبرز منها سوى الجانب الإنساني كما لم يثبت حتى الآن أن علاقته وصلت على حد العضوية الفعلية كمات هو حال حفيد سعيد، لذلك فإن علاقة عائلة ألأمير عبد القار بالحركة الماسونية تحتاج إلى بحث جدي، وفي وقت كشف المتنورون العرب حقائق عن هذه الجمعية, وهذا يعني أننا أمام سلسلة متصلة من علاقة عائلة ألأمير في الشام بهذه الجمعية ،فهل شكل علي بن عبد القادر انكسارا في هذه السلسلة؟ المصادر والمراجع التي بين أيدينا حتى الآن لا تنفي ولا تؤكد.

**موقفه من الفتن الداخلية:** كلت بلاد الشام على مرّ القرون جوهرة الإمبراطورية العثمانية وزادت هذه الجوهرة أهمية بعد أن فقد تلك الإمبراطورية مصر وإقليمها.. والمتمعن في تاريخ العثمانيين يدرك أن هؤلاء لم يدركوا أهمية بلاد الشام وأهلها لإمبراطوريتهم، فأساؤوا الإدارة والمعاملة إساءة بالغة حتى أنهم خرجوا منها عام 1918م على عربات تجرها الثيران كما دخلوها عام 1416 فلم يتقدم أهل الشام ومعهم أهل الجزيرة العربية خلال خمسة قرون عثمانية عما كان عليه حالهم قبل ذلك في زمن المماليك.. بل إنهم ازدادوا تخلفاً على كل الصعد وأوشكوا على فقد هويتهم القومية وبالتالي الدينية نتيجة سياسة التتريك التي زادت ضراوة.

وهكذا فإن بلاد الشام والجزيرة العربية شهدت كثيراً من الحركات والهبات الشعبية المنظمة حيناً والعفوية معظم الأحيان وكلها تحركات وهبات يجمعها السخط على الدولة العثمانية..

ولما كانت بلاد الشام هي في واقع الحال مفتاح الأمن القومي لمصر والعراق وجزيرة العرب وتركيا نفسها، ونظراً لعلاقاتها مع أوروبا كما هو حال لبنان مع إيطاليا وفلسطين مع فرنسا.ز بل وعلاقة الجزيرة العربية مع الهند التي تحكمها بريطانيا كان هؤلاء العرب يرون العالم يتقدم من حولهم وهم يتأخرون تحت هذه الدولة التي تحكمهم باسم الإسلام فكانوا يريدون الفوز بالحسنين معاً التقدم الأوروبي- والدين الإسلامي. وهي معادلة كانت صعبة التحقيق..

ولم يجد الحكام المحليون طريقة لتحقيقها فاضطربوا حتى أن بعض حكام المناطق أعلنوا تنصرّهم مرة وإسلامهم مرة أخرى.

وفجأة وجد الشوام حلاً.. فما أن جاء إبراهيم بن حاكم مصر محمد علي باشا بجيوشه في أربعينيات القرن التاسع عشر حتى انضموا إليه. فمحمد علي كان منفتحاً على أوروبا وهو مسلم "ألباني في روايات ويوناني في روايات أخرى "ويعلن أنه يريد إقامة دولة للعرب ، بل أن ولده إبراهيم كان يردد بالنص الفرنسي كلمة القومية العربية وهو اسم ورد بالفرنسية لأول مرة في التاريخ حين أطلقه محمد خوجة الجزائري على جمعية أسسها في باريس بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر[12] وكانت توجهات محمد على نحو العروبة ونحو الحداثة الأوروبية سبب أعجاب أهل الشام من جهة والأمير عبد القادر الجزائري أيضا .لذلك استطاع جيش محمد علي دحر الجيوش العثمانية حتى حلب بل هدد بشكل جدي منطقة أضنة التركية.. أي أن الرجل أصبح على أبواب استانبول وبالتالي أوروبا وهنا قلبت أوروبا ظهر المجن لصديقها وحليفها فأجبرته على مغادرة بلاد الشام وإعادتها للعثمانية، فانسحب ولكن العثمانية بعقلها المتخلف لم تفهم الدرس.. فعادت لتحكم بلاد الشام بقسوة أكبر..ز بل أمعنت فيهم تمزيقاً وتفتيتاً وزرعت الفتنة بين الطوائف الدينية وما أكثرها في الشام المقدسة، ومنها فتنة 1860 بين النصارى والمسلمين في دمشق والتي تمكن الأمير عبد القادر الجزائري من إخمادها بدبلوماسيته البارعة وحمايته الصارمة للمسيحيين.. وإن كان المؤرخون العرب

ينظرون إلى هذه الواقعة باعتبارها فتنة طائفية بين المسلمين والنصارى، وهو اكتفاء منهم بالمظهر، وجزء من محاولة تبرئة الإمبراطورية العثمانية من دم العرب نصارى ومسلمين، إلا أنها في الجوهر تعبر عن هبة شعبية عربية ضد الجور والاستعباد العثماني وقد فهم الأمير عبد القادر الجزائري ذلك فهما دقيقاً وعالج تلك المسألة على أساس هذا الفهم الذي سرعان ما أثبتت الأيام صحته، فما هي إلا سنوات حتى بايع زعماء العرب من مسلمين ونصارى الأمير عبد القادر في عام 1871، ليكون ملكاً على العرب، وتمت المبايعة سراً مرتين واحدة في صيدا والثانية في دمشق وطلبوا منه أن ينفصل بهم عن الدولة العثمانية التي تدعي الإسلام وتذلهم باسمه.

وقد ظلت هذه الهبات والحركات الشعبية التي يسميها المؤرخون فتناً، تندلع في وجه الدولة العثمانية هنا وهناك بشكل دوري تقريباً.. ولكن الأمير وعائلته من بعده، صاروا معنيين بالتدخل لإطفاء أي صراع ينشب بين الفئات والطوائف بعضها بعضاً من جهة أو بينها وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى وهكذا وجد الأمير علي بن عبد القادر نفسه عام 1912 محل نداء لإطفاء صراع اندلع في منطقة حوران جنوب سورية بين عائلة المقداد الحورانية المسلمة السنية وطائفة الدروز التي تسكن جل العرب الواقع في المنطقة ذاتها وتتزعمهم عائلة الأطرش الشهيرة وهو صراع سرعان ما توجه ضد الدولة العثمانية نفسها موظفيها وعساكرها.

ويخصص كتاب "تاريخ حياة الطيب الذكر" فصلاً بعنوان الأمير والمسألة الحورانية (ص. 78) ويورد عدداً من البرقيات والرسائل المتبادلة وفي طليعتها رسالة والي سورية ناظم بن حسن تحسين المؤرخة بالتاريخ الميلادي الشرقي 30 مارت 1325 وتقابل بالتاريخ الميلادي الغربي 1912. وفيها يطلب الوالي من علي بن عبد القادر التدخل في هذا النزاع الذي بدأ بين عائلتي الأطرش الدرزية والمقداد الحورانية السنية، وتطور ليصبح بين الدروز والحكومة العثمانية.. ومن خلال البرقيات والرسائل المتبادلة وفحوى الاجتماعات التي عقدها الأمير مع الأطراف المتنازعة خاصة الدروز نفسهم أن الدروز الذين يحظون في لبنان الذي قدم معظمهم منه بتأييد سري من بريطانيا أنهم كانوا يرفضون توجه الدولة العثمانية لتركيز وجودها الإداري العسكري في تلك المنطقة. ونجد أن الأمير علي نجح في مسعاه هذا وبالصلح بين العائلتين الدرزية والحورانية وبإعادة المنهوبات التي تبادلها الطرفان وما استولوا عليه من عتاد الدولة وخاصة السلاح .كما أنه أقنع الدروز بقبول مؤسسات الدولة وفي طليعتها المدارس ومشروعات تنموية أخرى.. لكن لم تكن لدى الدولة العثمانية النية أو القدرة على تنفيذ وعودها التنموية.. فقد كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.. وفي وقت لاحق انضم بعض الدروز والحوارنة إلى شريف مكة في الثورة ضد الأتراك والتي كان من المشاركين فيها عدد من الجزائريين الذين تمّ إعدامهم في طليعتهم عمر بن عبد القادر شقيق علي والبكباشي سليم الجزائري .وفي عام

1925 ثار الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش ضد الاحتلال الفرنسي فيما عرف بالثورة السورية الكبرى 1925- 1927 وكان من رجالاتها إضافة إلى الأطرش والشهبندر عدد من أفراد العائلة الجزائرية وفي طليعتهم عز الدين الجزائري حفيد الأمير عبد القادر وابنته زينب.

وقبل أن أغادر هذه الفقرة أجد من المفيد أن أذكر أنه بنفس الفترة 1910- 1921 قامت في منطقة الكرك جنوب المملكة الأردنية الهاشمية اليوم هبة ضد الدولة العثمانية سرعان ما تحولت إلى فتنة بين المسيحيين بقيادة عائلة قسوس والمسلمين بقيادة عائلة المجالي.. فتدخل الأمير عمر بن عبد القادر شقيق علي لإخمادها وقد نجح في ذلك فعلاً.. غير أن تركيا العثمانية كافأت الأمير عمر بإعدامه شنقاً عام 1915 باعتباره أحد رجال حركة القومية العربية، كما نفت شقيقه علي نفسه.

**وفاته:**

يلاحظ المتتبع للمواقف الرسمية للدولة العثمانية من عائلة الأمير عبد القادر اختلافاً في مشهدي الجنازتين، جنازة الأمير عام 1882م، وجنازة ولده الأمير علي عام 1918.

فحين توفي الأمير عبد القادر نشب صراع بين الدمشقيين بمختلف فئاتهم وبين السلطة العثمانية ممثلة بالولاية في دمشق، فقد كان الدمشقيون قد قرروا حضور الشيخ عليش شيخ الأزهر الذي قام بغسل الأمير وتكفينه بأن يدفن عبد القادر في داخل المسجد الأموي بجانب قبر النبي يحيى (يوحنا المعمدان عند النصارى).. ويبدو

أن السلطات العثمانية قد تنبهت على عميق هذا المعنى ورسالته التاريخية. فرفضت الفكرة بشدة وكادت تحدث صدامات بين السلطة التركية العثمانية وأهل الشام العرب ، إلى أن اقترحت السلطة دفنه بجانب مرقد الشيخ محي الدين العربي ذلك الصوفي القادم في المغرب العربي ويقدسه الشوام، والذي يعتبر الأمير عبد القادر من مدرسته التصوفية حيث هو الذي قام بمراجعة وإعادة بعث كتابه المواقف... فاعتبر الاقتراح حلاً وسطاً وافق عليه الدمشقيون الذين ماجوا بالعويل والصياح وخرجوا جميعا في جنازته حيث يقول البيطار (فلما أصبح الصباح ماج الناس بالعويل والصياح ونقل في عربته من قصره في دمر إلى داره في الشام، ثم غسل في داره بحضرة العلماء الأعلام وصلي عليه في جامع بني أمية في مشهد لم يسبق لمثله وخرج معه الناس أجمع من الخضوع والتذلل، إلي أن دفن في الصالحية من دمشق في مدفن الشيخ ألأكبر محي الدين العربي[13]

وإذا لاحظ هنا أن البيطار لم يورد وجود أي من الشخصيات العثمانية الرسمية في الجنازة مكتفيا بالعلماء الأعلام ألاحظ أيضا الشعور العالي بالوحدة بين المشرق والمغرب في الأبيات التي كتبت على القبر من شعر عبد المجيد الخاني إذ تقول الآبيات: لله أفق صار مشرق دارتي قمرين هلا من ديار المغرب الشيخ محي الدين ختم الأوليا قمر الفتوحات الفريد المشرب والفرد عبد القادر الحسني الأمير قمر المواقف ذا الولي ابن النبي من نال أعلى رفيق أرخوا أزكى مقامات الشهود الأقرب وفي الواقع إن مرض وموت وجنازة ألأمير عبد القادر

الجزائري يستحثان جهد الباحثين العرب حيث ظهرت للعيان مواقف الجمهور العربي المشرقي من المغرب العربي وقبولها بالقيادة الجزائرية لكفاحها القومي الوحدوي .. فهناك أمور تثير الشك في وفاة الأمير عبدا لقادر خاصة وأن ولده محمد يذكر في كتابه تحفة الزائر أن الأمير رفض في أيامه الأخيرة تناول الدواء من يد أحد من الذين حوله باستثناء محمد نفسه[14]، بل إننا نجد بعد ذلك وبعد نفي الأمير علي أن قام جمال السفاح والي دمشق بتخريب قبر الأمير عبد القادر قرب مرقد الشيخ محي الدين بن العربي، وفي الكتاب الذي بين أيدينا حول تاريخ الأمير علي إشارة إلى هذا التخريب (ص. 198).

وأما في مشهد وفاة وجنازة الأمير علي فنجد اختلافاً في تفاصيل الصورة توحي بأن ولده محمد سعيد لم يذكر في كتابه بعض الحقائق.. فهو لا يذكر العلاقة بين والده الأمير علي وكلاً من السلطان والحكومة العثمانية في الفترة ما بين فرار عبد القادر بن علي بن عبد القادر من منفاه مع والده والتحاقه بثورة الحسين بن علي شريف مكة. ولا يذكر لنا ما هو المرض الذي عانى منه والده واكتفى بالقول في صفحة 165 (توفي صاحب الترجمة قدس الله سره في الآستانة العليا عقيب مرض لم يقوَ جسمه الشريف على احتماله) ورغم أن كلمة (عقيب) توحي بأن الوفاة كانت سريعة والمرض كانت مدته قصيرة إلا أنه يؤكد أن السلطان أوفد أحد رجال قصره للتعزية ثم أمر بأن يدفن في مرقد خاص ولم يذكر أين، وأكثر من ذلك فإن السلطان أمر بأن يغطى نعش علي بن عبد القادر بالسترة

النبوية (وهي من علامات الخلافة الإسلامية) ولكن هذا السلطان لم يستقبل الأمير محمد سعيد بن علي وعبد الله بن عبد القادر حين ذهبا إلى القصر السلطاني لشكر هذا السلطان على تعازيه بوفاة علي الذي حسب نص محمد سعيد دفن باحتفال مهيب ساد فيه الصمت والجلال فشيع نعشه الأطهر العلماء ورجال القصر السلطاني وعدد جم من الجند (ص. 166).

وفي نفس الوقت فنحن نفتقر على معلومات عن أثر وفاته على الدمشقيين بل إن محمد سعيد لا يتحدث عن بيت عزاء فتح في دمشق التي كان علي نائبها في البرلمان.. وبالتالي لا يذكر ردة فعلهم ولا ردة فعل العرب سواء كانوا من مؤيدي الدولة العثمانية أو من مؤيدي حركة القومية العربية فهل يعود ذلك إلى أن موقف الأمير علي كان غامضاً من الصراع العربي- التركي الذي يعرف في الأدبيات العربية بالثورة العربية بقيادة شريف مكة، والذي أعلن حكومته في دمشق نفسها وفي أكتوبر من العام نفسه 1918، الأمير سعيد بن علي وهو أول من رفع العلم العربي المستقل في القرن العشرين، والذي سلمه له أخوه عبد القادر الذي اتهمه لورنس بأنه عميل لفرنسا ولم يكن فيصل بن الحسين يكترث بكلام لورنس في هذه الاتهام على خطورته أفلا يوحي كل ذلك بأن تفاصيل حقائق تاريخية عربية في المشرق والمغرب أضاعها أو أخفاها أحفاد الأمير عبد القادر.. وتغاضى عنها الإنجليز والفرنسيون؟ وعلى الباحثين الجزائريين مهمة جدية في هذا الميدان.

**أولاده وأحفاده:** في حدود المصادر المتوافرة فإن لعلي بن عبد القادر ولدان وحفيدان من الذكور أما الولدان فهما: محمد سعيد، عبد القادر، وأما الحفيدان فهما عبد الرزاق، ومحمد الفاتح.

**محمد سعيد بن علي:** يستحق محمد سعيد دراسة متأنية بسبب الدور الذي لعبه في نهاية الحرب العالمية الأولى حيث ظهر وكأنه يقوم بدور سياسي كوسيط بين الأتراك وشريف مكة ويتحرك ما بين السلط مقر القيادة العسكرية الصغير التي يرأسها جمال المارديني أو جمال الصغير الذي خلف جمال السفاح على ولاية الشام وبين معان مقر قيادة فيصل بن شريف مكة ويبدو أنه وصل على اتفاق لانسحاب الجيش العثماني من البلاد العربية ومنح الاستقلال للعرب حيث اقتنع الضباط الألمان بأن هذا الصلح هو المخرج من تدمير الجيش العثماني والألماني على يد الحلفاء.. وقد قبل السلطان العثماني "محمد رشاد" هذه الاتفاقية ولكن مجموعة الطورانيين الحاكمة منعته من توقيع الفرمان وبالتالي لم يحدث الصلح... ويبدو أن فيصل بن الحسين كلف محمد سعيد بن علي بإعلان استقلال الدولة العربية ورفع العلم العربي حال انسحاب الجيش العثماني.

وفي أكتوبر 1918 قام محمد سعيد بذلك وأنزل العلم العثماني الإسلامي بكل احترام من دار الولاية وألف الحكومة العربية المستقلة ورفع العلم العربي سابقاً بذلك الجيش البريطاني بقيادة الجنرال الذي دخل فلسطين عن طريق غزة قادماً من مصر، غير أن الضابط الإنكليزي لورنس المسيطر على فيصل بن الحسين

وجيشه سارع إلى دمشق وألغى حكومة محمد سعيد واعتقله واغتال شقيقه عبد القادر متهماً إياهما بالتجسس لصالح فرنسا، فتعقد الموقف في سورية.. وبدأت حكاية الاختلاف بين الإنكليز والفرنسيين على حدود الدول كما رسمتها اتفاقية سايكس بيكو. وحين استولت فرنسا على سورية وقام الجنرال غورو 1920 بقصف دمشق خاف المسيحيون على أنفسهم من انتقام المسلمين فقام سعيد بتكرار نفس السيناريو الذي قام به جده عبد القادر 1860 وحماهم في ذات المنزل بحي العمارة في زقاق النقيب والذي ما زال قائماً حتى كتابة هذه السطور وبدأت العلاقات تتوتر بين فرنسا وسعيد. ويبدو أن الأمير سعيد كان يطمح إلى عرشي سورية والجزائر ويقول كتاب هؤلاء حكموا سورية عن سعيد¬(رشح لعرش سوريا عام 1920 وبالنظر لشروطه المعروفة توقفت المفاوضات بهذا الشأن، من قبل الفرنسيين الذين عارضوا المشروع وحاربوه فيما بعد بفتنة داخلية أثارها ضده أولاده فبقي صامدا للشدائد مدة اثني عشر عاما صابرا على البلوى مكرسا نفسه لخدمة بلاده المفداة وهو يطمع بعرش آبائه في الجزائر إذ رشحه بنو قومه لتسلم العرش فحالت السلطة الفرنسية دون تحقيق أمانيهم...)[15] ورغم تجنس بعض أفراد عائلة الأمير بالجنسية الفرنسية إلاّ أنّ علاقات العائلة وفرنسا كانت متوترة في المشرق العربي خاصة بعد اندلاع الثورة السورية الكبرى 1925-1927 بقيادة سلطان باشا الأطرش رأس الطائفة الدرزية المدعومة من الإنجليز، وشارك فيها بفعالية عدد مهم من العائلة بقيادة عز الدين

الجزائري حفيد الأمير عبد القادر من ابنته زينب.. فقامت فرنسا بنفي سعيد إلى فلسطين وظلت العلاقات متوترة وظل سعيد محسوباً بطريقة أو بأخرى على هامش الحركة الوطنية السورية وإن اتهم بأنه كان يبيع أملاكه وأملاك عائلته في فلسطين على اليهود.. وقد اتضح أن هناك علاقات متوترة بينه وبين ولده عبد الرزاق فأعلن براءته منه.ز وصارت بينهما محاكم قاك ولده عبد الرزاق في إحدى جلساتها بإطلاق النار عليه. وتدخل الأمير سعيد في وقت مبكر بالقضية الفلسطينية وذلك منذ ثورة البراق الشريف عام 1927 حيث اندلعت تلك الثورة من حي المغاربة الملاصق لحائط البراق الحائط العربي للمسجد الأقصى الذي يسميه اليهود حائط المبكى، مطلب الحاج أمين الحسيني زعيم الحركة الوطنية الفلسطينية من الأمير سعيد باعتباره زعيم المغاربة في المرق العام الإدلاء بشهادته في لجان تقصي الحقائق التي أخذت ترد على فلسطين تباعاً وفي عام 1948 أسس محمد سعيد فصيلاً عسكرياً ضم متطوعين من الجزائر ومن عموم المغرب العربي للمشاركة في حرب فلسطين ضد اليهود.. ثم ارتأى ضم ذلك الفصيل لجيش الإنقاذ الذي كان يرأسه فوزي القاوقجي.. وفي أعقاب 1948 رغم اهتمام الصحف السورية بأخبار محمد سعيد ورغم صدور بعض الكتب عنه ورغم علاقاته الواسعة مع الشخصيات العربية سورية وغير سورية، إلا أنها لا تحدثنا عن دور سياسي محدد له أو علاقة من الآبأي نقلابات التي شهدتها سوريا لكنها تحدثنا فجأة عن علاقة له بالثورة الجزائرية وجبهة التحرير

الوطني ونجده على رأس المظاهرات الشعبية المطالبة باستقلال الجزائر، ويبدو أنه حاول القيام بدور ما تحت الطاولةخلال الثورة ، ثم نجده في عام 1966 على رأس وفد جمعية دار الجزائر الذي أحضر رفات الأمير عبد القادر الجزائري بقيادة بعثة حكومية جزائرية برئاسة وزير الخارجية آنذاك عبد العزيز بوتفليقة. وهي فكرة نفذت في عهد الرئيس هواري بومدين وكان المرحوم مولود قاسم قد دثتني في دارة بالمرادية أن الفكرة جاءته حين زار قبر الأمير في دمشق في عهد الثورة ثم قدمها رسميا إلى الرئيس احمد بن بلا حين كان مستشارا له وأخذت وقتها للتنفيذ ويبدو أن سعيد طلب إطلاق سراح ولده عبد الرزاق الذي كان سجيناً في سجن سركاجي بعد اعتقاله لمشاركته حسين آيت أحمد في فتنة 1963 بمنطقة القبائل. وقد خصصت الحكومة الجزائرية له قصراً في شارع محمد الخامس للأمير سعيد وعائلته وزرته فيه عام 1968.. وظل سعيد في الجزائر حتى وفاته عام 1970 ودفن في القيطنة بمعسكر.

**عبد القادر بن علي:** هو الولد الثاني الذي تحدثنا عنه المصادر التي تبدأ بذكره بعد تمكنه من الفرار من منفى العائلة في تركيا والالتحاق بفيصل بن شريف مكة مصطحباً معه مجموعة من المقاتلين من القرى الجزائرية في منطقة حوران جنوب سورية اليوم.. لكن سرعان ما شب خلاف بينه وبين لورنس الضابط الإنجليزي المسيطر على فيصل وجيشه حيث لم يكن عبد القادر موافقاً على تخريب خط سكة الحديد الحجازي الرابط بين استانبول دمشق

المدينة المنورة وهو الجهد الوحيد الذي ركز عليه لورنس وفيصل .فاتهمه لورنس بالعمالة لفرنسا وحين أعلن محمد سعيد الحكومة العربية المستقلة باسم فيصل في أكتوبر 1918 كلف عبد القادر بالحفاظ على الأمن، وتمكن من تشكيل قوة من الجزائريين "المغاربة" وبالفعل انسحب الجيش العثماني ولم تحدث في دمشق أي حالة شغب طوال ثلاثة أيام التي حكمت فيها تلك الحكومة.. إلا أنه حين جاء لورنس, ألغى حكومة سعيد وسيطر على السلطة وقام باعتقال سعيد واغتيال عبد القادر.

**الأحفاد:**

**عبد الرزاق بن سعيد بن علي:** إذا كان أولاد وأحفاد الأمير عبد القادر الجزائري قد توزعوا على الخريطة السياسية القائمة في العالم العربي آنذاك فبعضهم مع العثمانيين وبعضهم مع العرب في المشرق، وبعضهم يأتي إلى المغرب ليكافح ضد فرنسا وضد الأسبان، وبعضهم يعود للجزائر نفسها ليأخذ موقع المؤسس في الحركة الوطنية الجزائرية.

لكنّنا نجد بقعة سوداء في هذه الخريطة السياسية لأولاد وأحفاد الأمير عبد القادر تتمثل في عبد الرزاق بن سعيد..الذي اختار الانضمام إلى الحركة الصهيونية ... فمن المعروف أن عائلة الأمير عبد القادر بسبب إغداقات الدولة العثمانية عليه صارت من كبار ملاك الأراضي وأجودها في بلاد الشام ،ولأن الحركة الصهيونية كانت ولازالت تريد الاستيلاء على الأرض في المنطقة اهتمت

باصطياد هذه العائلات المالكة مثل سرسق وسلام والتي يقطن معظمها الحواضر الكبرى مثل دمشق وبيروت ولم تكن الصهيونية لتستثني عائلة الأمير ، ويبدو أنها استطاعت اصطياد عبد الرزاق بن سعيد حفيد علي بن ألأمير عبد القادر؛ حيث حسب المصادر أنه انضم إلى الصهيونية في وقت مبكر، وتولى بيع الأراضي المسجلة باسم عائلته وخاصة والده سعيد، بل حاول أن يبيع أراضي الجزائريين من غير عائلته، وهي أراض كثيرة ذات مواقع إستراتيجية في فلسطين وقد خصصت بحثا لأملاك هؤلاء الجزائريين في المناطق الفلسطينية فلينظر ❖❖ ويبدو أن نقطة بيع أراضي الجزائريين من غير عائلة الأمير هي التي كشفت انتماء عبد الرزاق للحركة الصهيونية وأحرجت والده؛ إذ حاول إقناع بعض العائلات من قبيلة أولاد سيدي عيسى الذين يسكنون قريتي شعارة وكفر سبت من منطقة طبريا باستبدال أراضيهم في فلسطين بأضعاف مساحتها في حوران جنوب سورية، وظلت الأمور بين شد وجذب إلى أن انتقل بعض أهالي تلك القريتين إلى سورية 1927 فنكل بهم عبد الرزاق وأبوه سعيد.. فتعقدت المشكلة وعانت هذه العائلات معاناة شديدة وطويلة الأمد وكادت أن تضيع في خصومة الوالد وولده. بل إن كبار السن من قبيلة سيدي عيسى يتداولون أن بعضهم شاهد عبد الرزاق في بيروت مرتديا رتبة ضابط كبير في الجيش الفرنسي❖ من حديث للحاج //لخضر يطو// لهذا الباحث تم في منزل الحاج بدمشق فقد كان هؤلاء فلاحون بسطاء من نسل مجاهدين في جيش

الأمير عبد القادر وبالتالي يعتبرونه ويعتبرون أولاده وأحفاده قيادة دينية ودنيوية تجب طاعتهم ومن الواضح أن أولاد ألأمير وأحفاده تصرفوا كعائلة إقطاعية ذات مطامع مالية بغطاء سياسي وديني فالأولاد منذ لحظة وفاته اختاروا الجهة التي تغدق عليهم المال سواء كانت فرنسية أو عثمانية ... بل نلاحظ أن بعضهم إبان الاحتلال الفرنسي لسورية كان يقبض جعالات من القنصلية ألأمريكية في استامبول كما يقول عز الدين حفيد عبد القادر في رسالة إلى القنصل البريطاني في حيفا.[16] ولعل من اخطر الأدوار وأكثرها مدعاة للاشمئزاز هو الدور لذي لعبه عبد الرزاق بن سعيد بن علي إذ تقول بعض المصادر أنه كان عضوا بارزا في الشعبة الماسونية المالطية؛ وبذلك يكون قد تتبع خطى والده سعيد الذي تثبت المصادر أنه كان يرأس محفل الشرق الماسوني. ويبدو أن عبد الرزاق كان متزوجا من يهودية إسرائيلية من أصل بولوني تدعى سيسيل سارنيواس والتي كانت معه في أحداث القبائل 1963 وأنّه اعتنق اليهودية كما يقول المؤرخ الإسرائيلي أ بتبول. ولست أدري إذا ما كانت يهوديته قد قبلت فاليهودية دين مغلق ولا يقبل الحاخامات دخول أي من أصحاب الديانات ألأخرى / الأميين / إليها مهما كانت خدماته لهم، لكن المسالة ليست في زواج عبد الرزاق أو تغييره دينه بل هي في قول المصادر أن عبد الرزاق كأن عضوا نافذا في جبهة التحرير الوطني ممثلا للتيار الفرانكفوني الشيوعي وأن مواقفه هذه المعادية للعرب واللغة العربية ونصيحته الدائمة للجبهة

بالابتعاد عنهم هي التي كانت وراء الخلاف بين بن بلة وفرحات عباس ..كما يقول المؤرخ ميخائيل ليسكار وأن إعلان إسرائيل الاعتراف في الجزائر الذي رفضه بن بلا فورا كان محاولة لدعم عبد الرزاق الذي ظهر عام 1963 في ذراع الميزان، فقد كان الموساد الإسرائيلي يتعقب قوافل إمداد الثورة بالسلاح في كل أنحاء العالم وخاصة في الأراضي الليبية ويبلغ بها على الفور حليفه الموضوعي الجيش الفرنسي في الجزائر و المخابرات الفرنسية في باريس. وقد حوكم عبد الرزاق أمام الغرفة السابعة في محكمة الجزائر العاصمة بتاريخ 11 أب أغسطس 1963 على ما يقول الباحث عبد الرحمن مكاوي وبقي في السجن حتى عام 1966 حيث أطلق سراحه حسب جريدة الجزائر بعد استعادة رفات جده الأمير بطلب من والده الأمير سعيد الذي رافق الجثمان رغم أن سعيدا أعلن في عام 1963 براءته الثانية من ولده عبد الرزاق ودان سلوكه في ذراع الميزان. وعاد عبد الرزاق إلى إسرائيل وسمعت نفيه من إذاعة إسرائيل بالعربية عام 1968 ودفن في أحدى المستوطنات في صحراء النقب. ويشير الباحث الأمريكي وليام كواندت في كتابه المترجم إلى العربية بعنوان الثورة والقيادة السياسية الجزائرية 1954- 1968❖ دمشق 1981 إلى دور عبد الرزاق في أحداث ذراع الميزان معتمدا على كتاب المذكور المعنون / النزاع العربي اليهودي اليهود والعرب يواجهون المستقبل، ويصفه باهماركسي ممالئ للصهيونية[17] وفي اعتقادي انه يجب على الباحث الجزائري الوطني الحفر عميقا في حكاية عبد الرزاق بن

علي في حوادث ذراع الميزان 1963 لأنها على ما يبدو هي التي ست لما جرى في المنطقة منذ ثمانينات القرن الماضي كما أنها نبت لما جرى في أربعينيات القرن الماضي داخل حزب الشعب حيث يتضح من عدد جريدة لوموند الفرنسية 3 سبتمبر 1963 أن عددا من اليهود الإسرائيليين ومن يهود الجزائر شاركوا في تلك الأحداث بهدف إقامة دولة، إذ لا يبدو عبد الرزاق رجلا سياسيا طموحا له وجهة نظر في الذي يجري مشرقا ومغربا كما يريد الإيحاء بل إنّه بسبب هذا الطموح تحول إلى موظف تافه يسهل التلاعب به تحت ستار نسبه. وتبدو الجالية الجزائرية في المشرق العربي في حسها الجماعي ذات شعور وطني وقومي رفيع المستوى فهي لا تطلق على أي من أولاد سعيد لقب أمير ، بل أنها منذ استقلال الجزائر لم تعد تعترف بعائلة ألمير كممثلة لشرعية دولة الأمير عبد القادر أو حتى قيادة سياسية أو اجتماعية لها، لقد انتهى دور عائلة ألأمير السياسي والاجتماعي في المشرق العربي إلى الأبد بنظر الأجيال الجديدة من هذه الجالية المجاهدة.

وفي اعتقادي أن تاريخ علي بن عبد القادر وولده سعيد وحفيده عبد الرزاق يشير إلى ضرورة تعمق الباحث الوطني في الحرب الخفية التي دارت بين الحركة الوطنية الجزائرية وفرنسا حتى عام 1954 ثم الحرب الخفية التي دارت بين الثورة الجزائرية وأجهزة المخابرات الدولية بما فيها أجهزة المخابرات العربية نفسها .. ذلك أن كثيرا من الذين كتبوا مذكراتهم ممن يمكن تسميتهم شهود

عيان ركزوا على بطولاتهم الشخصية ونسوا أولئك الأبطال الذين كانوا ولازالوا يواجهون حروب الخفاء السرية ضد هذا الشعب الذي لم يزل يبحث عن قائده بعد العبقري عبد القادر.

الهوامش:

(1) الجزائري، محمد بن عبد القادر /تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر- شرح وتعليق ممدوح حقي ط. 2، دمشق، 1964، ص. 923.

(2)الخالدي سهيل: الإشعاع المغربي في المشرق العربي- دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، ط. 1، الجزائر، 1997، ص. 165.

(3) البيطار، الشيخ عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، بيروت، 1993، ط. 2، ص. 1423.

(4) سعيد أمين، الثورة العربية الكبرى تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر د ت، جـ. 1، ص. 162.

(5) تراجع كل كتب لورنس المذكور بالانجليزية والمترجمة وأهمها أعمدة الحكمة السبعة

(6) الجندي أدهم، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، دمشق، ص. 100، وكذلك كتابه شهداء الحرب العالمية الأولى، دمشق، 1960، ص. 14.

(7) التونسي موسى الكاظم، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي- الجزء الأول، دمشق، د.ت.د.ط.، ص. 100.

(8) نفسه، ص. 25.

(9) سعيد أمين، مصدر سابق، جـ. 1، ص. 66.

(10) سلطان، علي/ تاريخ سورية، ص. 125.

(11) نفسه ص. 123.

(12) المرآة.

(13) البيطار، عبد الرزاق، مصدر سابق، ص. 904.

(14) الجزائري، محمد بن عبد القادر، مصدر سابق ص. 856.

(15) المدني ، سليمان / هؤلاء حكموا سورية دمشق، 1996، ط. 1، ص. 12.

(16) الخالدي سهيل، مصدر سابق، ص. 185، حيث نص رسالة الأمير عز الدين على القنصل الفرنسي في حيفا والتي يقول فيها بالحرف: ولولا مساعدة دولة أميركا لأصبحنا في عسر شديد.

(17) كواندت، وليم .ب، الثورة والقيادة السياسية الجزائرية 1954- 1968، ترجمة الدائرة العسكرية، دمشق، ص. 280.